مجموع مؤلفات ابن سعدي (٧١)

الدرة الفاخرة

في التعليق على

منظومة السير إلى الله والدار الآخرة

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين.

هذا تعليق لطيف على منظومتي في السير إلى الله والدار الآخرة، يحل معانيها ويوضح مبانيها، فإنها قد حصلت على كثير من منازل السائرين إلى الله، التي توصل صاحبها إلى جنات النعيم في جوار الرب الكريم، وتمنعه من عذاب الجحيم والحجاب الأليم.

والله المسئول - بفضله ومنه - أن يجعله خالصا لوجهه، مقربا عنده.



العبادة

واعلم أن المقصود من العبد: عبادة الله ومعرفته ومحبته والإنابة إليه على الدوام، وسلوك الطرق التي توصله إلى دار السلام، وأكثر الناس غلب عليهم الحس وملكتهم الشهوات والعادات، فلم يرفعوا بهذا الأمر رأسا، ولا جعلوه لبنائهم أساسا، بل أعرضوا عنه اشتغالا بشهواتهم، وتركوه عكوفا على مراداتهم، ولم ينتهوا لاستدراك ما فاتهم في أوقاتهم، فهم في جهلهم وظلمهم حائرون، وعلى حظوظ أنفسهم الشاغلة عن الله مكبون، وعن ذكر ربهم غافلون، ولمصالح دينهم مضيعون، وفي سكر عشق المألوفات هائمون. ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ولم ينتبه من هذه الرقدة العظيمة، والمصيبة الجسيمة إلا القليل من العقلاء، والنادر من النبلاء، فعلموا أن الخسارة كل الخسارة الاشتغال بما لا يجدي على صاحبه إلا الوبال والحرمان، ولا يعوضه مما يؤمل إلا الخسران، فآثروا الكامل على الناقص، وباعوا الفاني بالباقي، وتحملوا تعب التكليف والعبادة، حتى صارت لهم لذة وعادة، ثم صاروا بعد ذلك سادة، فاسمع صفاتهم واستعن بالله على الاتصاف بها:

سعد الذين تجنبوا سبل الردى ... وتيمموا لمنازل الرضوان

هذا هو أصل طريقهم، وقاعدة سير فريقهم: إنهم تجنبوا طرق الخسران وتيمموا طرق الرضوان، تجنبوا طرق الشيطان وقصدوا عبادة الرحمن، تجنبوا طرق الجحيم وتيمموا سبل النعيم، تركوا السيئات وعملوا على الحسنات، نزهوا قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم عن المحرمات والمكروهات، وشغلوها بفعل الواجبات والمستحبات.

تحلوا بالأخلاق الجميلة، وتخلوا من الأوصاف الرذيلة.

فهم الذين أخلصوا في مشيهم　　متشرعين بشرعة الإيمان

هاتان القاعدتان - وهما: الإخلاص والمتابعة - شرط لكل عبادة، ظاهرة وباطنة[١]، فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، وكل عمل لا يكون على سنة رسول الله فهو مردود[٢]؛ فإذا اجتمع للعمل الإخلاص للمعبود - وهو أن يراد بالعمل وجه الله وحده - والمتابعة للرسول - وهو أن يكون العمل قد أمر به - فهذا هو هو العمل المقبول.

وهم الذين بنوا منازل سيرهم　　بين الرجا والخوف للديان

أي: ساروا في جميع أمورهم مستصحبين وملازمين للخوف والرجاء، وذلك أن لهم نظرًا؛ أي: نظر إلى أنفسهم وتقصيرهم في حقوق الله يحدث لهم الخوف، ونظر إلى منن الله عليهم، وإحسانه إليهم يحدث لهم الرجاء.

وأيضا؛ ينظرون إلى صفات العظمة والجلال، والحكمة والعدل، فيخافون على أنفسهم من ترتب آثارها، وينظرون إلى صفات الرحمة والجود والكرم والإحسان فيرجون ما تقتضيه:

فإن فعلوا حسنة جمعوا بين الخوف والرجاء فيرجون قبولها ويخافون ردها، وإن عملوا سيئة خافوا من عقابها ورجوا مغفرتها بفضل الله، فهم بين الخوف والرجاء يترددون، وإليهما دائما يفزعون، ومنهما في أمر سيرهم مترددون، فأولئك الذين أحرزوا قصب السبق، وأولئك هم المفلحون.

وهم الذين ملا الإله قلوبهم　　بـوداده ومحبة الرحمن

هذه المنزلة - وهي منزلة المحبة - هي أصل المنازل كلها ومنها تنشأ جميع الأعمال الصالحة والأعمال النافعة، والمنازل العالية.

ومعنى المحبة: تعلق القلب بالمحبوب، ولزوم الحب للقلب فلا تنفك عنه، [وهي]

(١) وفي كتاب (العبودية) لشيخ الإسلام ابن تيمية بيان تفصيلي لهاتين القاعدتين.

(٢) كما في البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

تقتضي من صاحبها الانكفاف عما يكره الحبيب، والمبادرة إلى ما يرضيه بقلب منشرح وصدر رحيب؛ فإن تكلم تكلم بالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فلله، وإن سكن فله، ويحدث عن الحب الشوق إلى الله، والقلق فلا يكاد صاحبه يستقر[1].

إن قيل: فهل للمحبة - التي هي أعلى المراتب - من وسيلة وسبب؟

قيل: لم يجعل الله مطلبا إلا جعل لحصوله سببا، فمن أكبر أسبابها الانكفاف عن كل قاطع[2] بالقول والفعل والأفكار الردية، والإكثار من ذكر الله بحضور قلب وتدبر كلامه الكريم، ومطالعة نعمه العظيمة على العبد، وبالوقوف بين يديه بحضور قلب وأدب في الوقوف بين يديه، ومجالسة المحبين، ومجانبة كل قاطع، فمن فعل ذلك نال محبة الله - إن شاء الله - والله المستعان.

ولهذا قلت:

وهم الذين أكثروا من ذكره في السر والإعلان والأحيان

منزلة شريفة، حاجة كل إنسان إليها، بل ضرورته إليها فوق كل حاجة، فذكر الله هو عمارة الأوقات، وبه تزول الهموم والغموم والكدورات، وبه تحصل الأفراح والمسرات، وهو عمارة القلوب المقفرات، كما أنه غراس الجنات، وهو موصل لأعلى المقامات، وفيه من الفوائد ما لا يحصى، ومن الفضائل ما لا يعد ولا ينقضي، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وقال النبي ﷺ لرجل قال: إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأوصني. قال: **«لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»**[3].

---

(١) وذلك بسبب ما يقيم عليه نفسه من عمل، ومجاهدة، ودعوة ... .

(٢) أي: من القواطع عنها، المؤخرة لها.

(٣) الترمذي (٣٣٧٥).

وقال: «سبق المُفَرِّدون» قالوا: وما المفردون ؟ قال: «الذاكرون الله كثيرا والذاكرات»[1].

ولي من أبيات[2]:

وكـن ذاكـرًا لله في كل حالة ... فليس لذكر الله وقت مقيد
فذكر إله العرش سرًّا ومعلنًا ... يزيل الشقا والهم عنك ويطرد
ويجلب للخيرات دينًا وآجلًا ... وإن يأتك الوسواس يومًا يشرد
فقد أخبر المختار يومًا لصحبه ... بأن كثير الذكر في السبق مفرد
ووصـى مـعـاذًا يستعين إلهه ... على ذكره والشكر بالحسن يعبد
وأوصى لشخص قد أتى لنصيحة ... وقد كان في حمل الشرائع يجهد
بأن لم يزل رطبًا لسانك هذه ... تعين على كل الأمور وتسعد
وأخبر أن الذكر غرس لأهله ... بجنات عدن والمساكن تمهد
وأخـبـر أن الـلـه يـذكـر عبده ... ومعه على كل الأمـور يسدد
وأخبر أن الذكر يبقى بجنبه ... وينقطع التكليف حين يخلد
ولو لم يكن في ذكره غير أنه ... طريق إلـى حب الإلـه ومرشد
وينهى الفتى عن غيبة ونميمة ... وعن كل قول للديانة مفسد
لكان لنا حـظ عظيم ورغبة ... بكثرة ذكر الله نعم الموحد
ولكننا من جهلنا قل ذكرنا ... كـمـا قـل مـنـا لـلإلـه التعبد

وذكر الله نور للذاكر في قلبه، وفي قوله، وفي قبره، ويوم حشره.

والله المستعان.

---

(١) مسلم (٢٦٧٦). و(المفردون) هم: المنقطعون عن الناس بذكر الله.

(٢) وقد ضمن المصنف أبياته - هذه - معاني عدة أحاديث نبوية صحيحة، أكتفي بهذه الإشارة عن تخريجها فيه.

يتقربون إلى المليك بفعلهم طاعاته والترك للعصيان

هذه الأعمال التي تقرب إلى الله، وتوصل إليه، وهو فعل طاعته، لا سيما الفرائض وترك معاصيه، كما في الحديث القدسي: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب بالنوافل حتى أحبه**»[1].

فلهذا قلت:

فعل الفرائض والنوافل دأبهم مع رؤية التقصير والنقصان

هذا هو الكمال: وهو أن يجتهد في أداء الفرائض، والإكثار من النوافل، ويرى نفسه مقصرا مفرطا، فاجتهاده في الأعمال ينفي عنه الكسل، ورؤية تقصيره ينفي عنه العجب الذي يبطل الأعمال ويفسدها.

صبروا النفوس على المكاره كلها شوقًا إلى ما فيه من إحسان

الصبر: هو حبس النفس على ما يكره الإنسان إذا كان فيه رضا الرحمن.

والصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله حتى يؤديها، وصبر عن معاصي الله حتى يتركها، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسفهها، فإذا كسلت نفسه عن طاعة الله حثها عليها وألزمها ورغبها إياها بثوابها، وإذا اشتدت دواعي نفسه إلى معصية الله كفها عنها وحذرها وبالها وعاقبة فعالها، فالصبر محتاج إليه في كل الأمور:

نزلوا بمنزلة الرضا فهمُ بها قد أصبحوا في جنة وأمان

منزلة الرضا أعلى من منزلة الصبر؛ فإن الصبر حبس النفس وكفها على ما تكره، مع وجود منازعة فيها.

وبالرضا تضمحل تلك المنازعة، ويرضى عن الله رضا مطمئن منشرح الصدر، بل ربما تلذذ بالبلاء كتلذذ غيره بالرخاء. وإذا نزل العبد بهذه المنزلة طابت حياته وقرت عينه.

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

ولهذا سمي الرضا «جنة الدنيا ومستراح العابدين»، ومن رضي عن الله رضي الله عنه، ومن رضي من الله باليسير من الرزق، رضي الله منه باليسير من العمل.

فحقيقة الرضا تلقي أحكام الله الأمرية الدينية، وأحكامه الكونية القدرية بانشراح صدر وسرور نفس، لا على وجه التكره والتلمظ.

شكروا الذي أولى الخلائق فضله   بالقلب والأقـوال والأركـان

الشكر يكون بالقلب، وهو: الاعتراف بنعم الله والإقرار بها، وعدم رؤية نفسه لها أهلا، بل هي محض فضل ربه، ويكون باللسان، وهو الثناء على الله بها، والتحدث بها ويكون بالجوارح، وهو كفها عن معاصي الله، والاستعانة بنعمه على طاعته، فإن أعطاه شيئا من الدنيا شكره عليه، وإن زوى عنه شيئا منها شكره أيضا؛ إذ ربما كانت نعمته عليه صارفة منه شرا أعظم منها، وإن وفقه لطاعة من الطاعات رأى المنة لله في توفيقه لها وشكره عليها.

والله المستعان.

صحبوا التوكل في جميع أمورهم   مع بذل جهد في رضا الرحمن

يكمل العبد في هذين الأمرين؛ وهما: التوكل على الله، والاجتهاد في طاعة الله، ويتخلف عن العبد الكمال بفقد واحد منهما.

فحقيقة التوكل تجمع أمرين: الاعتماد على الله والثقة بالله، فيعتمد على ربه بقلبه في جلب ما ينفعه في أمر دينه ودنياه، فيتبرأ من نفسه وحولها وقوتها، ويثق بالله في حصول ما ينفعه ودفع ما يضره، ويجتهد في الأسباب التي يتوصل بها إلى المطلوب.

وتفصيل ذلك: أنه إذا عزم على فعل عبادة، بذل جهده في تكميلها وتحسينها، ولا يبقي من مجهوده مقدورا وتبرأ من النظر إلى نفسه وقوتها، بل لجأ إلى ربه واعتمد عليه في تكميلها، وأحسن الظن ووثق في حصول ما توكل به عليه. وإذا عزم على ترك معصية - قد دعته نفسه

إليها - بذل جهده في الأسباب الموجبة لتركها؛ من التفكر بها وصرف الجوارح عنها، ثم اعتمد على الله ولجأ إليه في عصمته منها، وأحسن الظن به في عصمته له، فإنه إذا فعل ذلك في جميع ما يأتي ويذر؛ رجي له الفلاح إن شاء الله تعالى.

وأما من استعان بالله وتوكل عليه، مع تركه الاجتهاد اللازم له، فهذا ليس بتوكل، بل عجز ومهانة. وكذلك من يبذل اجتهاده ويعتمد على نفسه ولا يتوكل على ربه فهو مخذول.

عبدوا الإله على اعتقاد حضوره　　　فتبوءوا في منزل الإحسان

هذه المنزلة يقال لها: منزلة الإحسان، وهي كما فسرها النبي ﷺ: «**أن تعبد الله وحده كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]. فإذا تصور الإنسان هذا المقام في جميع أحواله - لا سيما حال العبادة - منعه من الالتفات بقلبه إلى غير ربه، بل أقبل بكليته على الله، وتوجه بقلبه إليه متأدبا في عبادته، آتيا بجميع ما يكملها، مجتنبا كل منقص لها. وهذه المنزلة من أعظم المنازل وأجلها، ولكنها تحتاج إلى تدريج للنفوس شيئا فشيئا. ولا يزال العبد يعودها نفسه حتى تنجذب إليها وتعتادها، فيعيش العبد قرير العين بربه، فرحا مسرورا بقربه.

نصحوا الخليقة في رضا محبوبهم　　　بالعلم والإرشاد والإحسان
صحبوا الخلائق بالجسوم وإنما　　　أرواحهم في منزل فوقاني

هذه حالهم مع الخلق، أكمل حال وأجلها، فأبدوا لهم غاية النصح، وأحبوا لهم ما أحبوا لأنفسهم من الخير، وكرهوا لهم ما كرهوا لأنفسهم من الشر، فسعوا في إزالة الشر عنهم بكل ممكن، واجتهدوا في إيصال النفع إليهم. بكل مقدور؛ من أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وإغاثة ملهوفهم، وتعليم جاهلهم، وردع ظالمهم، ونصر مظلومهم، واحتمال أذاهم، وكفهم أذى أنفسهم عنهم، ومع هذا فصحبتهم لهم بالظاهر والجسم.

---

(١) البخاري (٥)، مسلم (٩).

وأما قلوبهم وأرواحهم: فإنها تجول حول الحبيب وتطلب من قربه أعظم نصيب، فتارة تنكسر بين يديه، وتخشع وتخضع لديه، وطورا تشكره لحبه، وتدل عليه لاستحضار بره وقربه، ثم تميل إلى مراضيه، فتجتهد في عباداته وتحسن إلى مخلوقاته، فهؤلاء هم الناس، بل هم العقلاء الأكياس. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بالله دعوات الخلائق كلها   خوفًا على الإيمان من نقصان

هذه منزلة الرعاية لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان، وذلك أن العبد لا ينبغي له أن يعرض عن تدبر أحواله، والتفكر في نقص أعماله، بل يبذل جهده قبل العمل، وفي نفس العمل وتصحيحه وتحسينه، ثم يصونه عن المفسدات، وينزهه عن المنقصات، فإن حفظ العمل أعظم من العمل، فكلما ازداد العبد رعاية لعمله واجتهادا فيه ازداد إيمانه، وكلما نقص من ذلك نقص من إيمانه بحسبه.

ومن أعظم ما ينبغي مراعاته في العمل مشهد الإحسان وهو الحرص على إيقاع العبادة بحضور قلب وجمعيته على الله، وكذلك مراعاة منة الله على العبد، وأنه ينبغي له أن يشكر الله على توفيقه لذلك العمل أعظم شكر. وكذلك مراعاة التقصير، وأنك لم تؤت العبادة حقها، ولا قمت بجميع ما تستحقها. وكذلك مراعاة الخوف والرجاء يخاف من ردها بعجب، أو رياء أو تكبر بها، أو عدم قيام بحقها، أو غير ذلك، ويرجو قبولها برحمة ربه ومنه، وإحسانه إليه الذي من جملته توفيقه لها.

عزفوا القلوب عن الشواغل كلها   قد فرغوها من سوى الرحمن
حركاتهم وهمومهم وعزومهم   لله لا للخلق والشيطان

أي فرغوا قلوبهم عن جميع ما يشغل عن الله ويبعد عن رضاه، وهذا حقيقة الزهد.

ولا يكفي هذا التفريغ حتى يمتلئ القلب من الأفكار النافعة والعزوم الصادقة، فتكون أفكار العبد في كل ما يقرب إلى الرحمن من تصور علم، وتدبر قرآن وذكر لله بحضور قلب

وتفكر في عبادة وإحسان، وخوف من زلة وعصيان، أو تأمل لصفات الرحمن وتنزيهه عن جميع العيوب والنقصان، أو تفكر في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأهواله، أو في الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، فأفكارهم حائمة حول هذه الأمور، متنزهة عن دنيات الأمور، والتفكر بما لا يجدي على صاحبه إلا الهم والوبال، وتضييع الوقت، وتشتيت البال غير نافع للعبد في الحال والمآل.

نعم الرفيق لطالب السبل التي تفضي إلى الخيرات والإحسان

فهؤلاء هم الذين يسعد بهم رفيقهم إذا اقتدى بسلوك سيرهم فريقهم، وهؤلاء الذين أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا طريقهم إذ أنعم عليهم بصدق إيمانهم وتحقيقهم.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]. وأن يجنبنا طرق الغضب والضلال الموصلة إلى الخزي والوبال، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

والله أسأل وبأسمائه الحسنى وصفاته ونعمه أتوسل ألا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان والغفران، بشر ما عندنا من التقصير بحقوقه والعصيان، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وسببا للفوز عنده في جنات النعيم. والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا، حمدا كثيرا مباركا فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله. وصلى الله على محمد النبي الأمي المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا.

قال مؤلفه رحمه الله: «فرغت منه ومن نسخه في ٣ شعبان سنة ١٣٣٣»وقد تم بقلم الفقير إليه عبده عبد العزيز بن حمد المصيريع في ٢٨ شوال سنة ١٣٤٢ هجرية.

